سيد سليمان رفاعى

«ظللت طوال حياتى النضالية أحارب الانقسامية، لكن أخطاء رفاقى فى عام ١٩٥٣ وإلحاح رفاق آخرين أغوتنى بالانقسام وكان خطأ حياتى، إذ أحسست بعدها أننى انتهيت».
سيد سليمان رفاعى
(فى حوار معه قبل وفاته بعدة أسابيع)

وفى أول حواراتى معه (١٩٧٦/١/١٢)، ولم يكن مرض السرطان قد أتى ليفترسه كان يحكى قصة حياته بسلاسة ومرح: «أنا من أسرة فقيرة، بل شديدة الفقر، من قرية قرب بنها، أبى فلاح ابن فلاح لكن الأرض الشحيحة دفعته إلى وظيفة عسكرى بوليس، هو فلاح بعض الوقت وعسكرى طوال الوقت، كانت مهنة العسكرى هى مفتاح تصرفاتى وتصرفات أبى، فماذا يكون حلم العسكرى لابنه؟، أن يصبح ضابطا، لكن أحلام الفقراء نادرا ما تتحقق». ويمضى سيد سليمان: «عندما حصلت على الابتدائية كنت أهوى القراءة بصورة غريبة، طوال أيام الإجازة أقرأ فى روايات الجيب التى اشتهرت بين القراء فى ذلك الزمان، ولم أزل أذكر أعدادا منها ترجمت قصصا عالمية لدستويفسكى وتولستوى وغيرهما، كنا فى عام ١٩٣٧ والأب فى حيرة من أمره فالضابط يتخرج فى المدرسة الثانوية، وهى دراسة خمس سنوات وتحتاج لمصروفات كثيرة، ثم إن القبول بكلية البوليس يحتاج إلى واسطة، وزملاؤه قالوا له: كيف رفض أبناؤهم فى كلية البوليس لأن الأب عسكرى، فكيف يكون هناك ضابط أبوه عسكرى؟ طوى الأب حلمه فى قلبه وأرسل الابن إلى المنصورة ليدرس فى مدرسة الصنائع قسم ميكانيكا، لأن الدراسة فيها ثلاث سنوات، وبدأت حكاية سيد مع صديقه وبلدياته أنور، فأنور هذا، رغم صغر سنه، وكان يعمل فى مهنة خطيرة هى إصلاح السلاح غير المرخص، وكان يتعامل مع عصابة لصوص أشد غرابة، فهى تسرق الأغنياء فقط وتخصص نصيبا من حصيلة المسروقات للتوزيع على الفقراء، «قال لى

أنور إنهم شيوعيون، وكانت أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة، لكن دهشتى تضاعفت عندما علمت أن أبى، وكان يعمل آنذاك فى السنبلاوين، حيث مقر هذه العصابة، كان يساعد هذه العصابة بتسريب معلومات لها عن تحركات واستعدادات قوة البوليس فى السنبلاوين ويبلغهم بأسماء المرشدين المخصصين للبحث عنهم والتجسس عليهم»، وفى مدرسة الصنايع تخرج سيد عام ١٩٤٠، وهنا وقع هو والأب فى أكبر خدعة حكومية تلقاها فى حياته، كانت هناك مدرسة اسمها ميكانيكا الطيران، وكانت تقبل الحاصلين على الابتدائية ليتخرجوا برتبة ميكانيكى طيران، وفى عام ١٩٤٠ أعلنت الحكومة أنها ستقبل دفعة من الحاصلين على دبلوم صنايع قسم ميكانيكا، وأنهم سوف يعينون بعد تخرجهم برتبة ضابط طيار، وتجدد الحلم من جديد وازدهرت آمال الأسرة جميعها فحلم أن يصبح ابنها ضابطا أصبح قريب المنال، أمسك العسكرى بيد ابنه مسرعا إلى القاهرة ليبدأ رحلة الحلم، ويمضى سيد رفاعى فى حواره معى: «كنت فى ذلك الحين بعيدا عن السياسة تماما، باستثناء هذا الحديث الغامض عن شيوعية يحققها اللصوص فى السنبلاوين، كنت معجبا بفاروق كملك شاب، وأحسست أن حلمى سيتحقق على يديه فأصبح ضابطا فى جيشه، وكانت دفعتنا فى المدرسة مكونة من ١٧٥ متطوعا، وخلال الدراسة أبلغنا أننا سنتخرج مبكرا فمدة الدراسة أصبحت سنتين فقط لأنه تقرر عدم تخريج ضباط فى هذه المدرسة وأننا سنكون مجرد ميكانيكيى طيران، وبدأنا فى عمليات احتجاج تلقائية على هذه الخديعة وتحول الاحتجاج إلى تمرد واعتصامات بالخيام، رفض للخروج إلى الطوابير، امتناع عن الطيران، وفى مواجهة ذلك كانت إدارة المدرسة تحاول أن تروضنا بقسوة شديدة، سجن وجلد وحرمان من الإجازات، لكن الغضب ظل مستمرا.. طلاب من زملائنا انتحروا احتجاجا، والميسورون منا امتنعوا عن الإجابة فى الامتحانات لكى يتم فصلهم، وفى عام ١٩٤٢ وبينما كنا على وشك التخرج سمعنا بالقبض على اثنين من زملائنا هما: حسن التلمسانى وحبيب سليم، بتهمة الشيوعية، وهكذا عرفت لأول مرة أن الشيوعية شىء آخر غير أن تسرق وتوزع الحصيلة على الفقراء، ثم كانت واقعة هرب الطيار سعودى إلى قوات المحور وحادثة محاولة هرب عزيز المصرى باشا فى ذات الاتجاه، وبدأت أجد نفسى مهتما بالسياسة وكانت حواراتنا فى الميس وفى المعسكر كلها حول المسائل السياسية، لكن غضبى كله حتى ذلك الحين كان منصبا على خديعة قادة الجيش لنا وعدم تخرجنا

كضباط، وعندما انتقل السرب الذى أعمل به برتبة جاويش إلى السويس بدأت فى إظهار تمردى وانضم إلى زميل اسمه حسن جوهر وبدأنا نتناقش معا فى سرية تامة عن كيفية الانتقام من قادة الجيش الذين خدعونا، واتفقنا على تشكيل تنظيم سرى يكون هدفه اغتيال كل قادة الجيش والطيران انتقاما منهم، وفيما نحن منهمكون فى تشكيل هذا التنظيم، نزلت إلى القاهرة فى إجازة، وكنت لم أزل أتصل بزملاء الدفعة محاولا أن أختار منهم الأكثر إحساسا بالظلم لأضمه إلى تنظيمى، وقابلت واحدا من زملاء الدفعة هو محمد عزب قابيل، وفيما بدأت أفاتحه فى الانضمام إلينا فى تنظيمنا فاتحنى هو فى الانضمام إليه، فالاغتيالات لن تجدى شيئا ولكن المهم هو أن نسعى إلى قلب نظام الحكم كله. ووافقت على الفور»، وبعد عدة أيام قاده محمد عزب قابيل إلى شارع الهرم حيث حضر اجتماعا فى أحد المنازل كان هناك حوالى ١٥ شخصا.. «وحضر الزعيم وهو أنور كامل، وبدأ هو فى حديث عن موضوعات معقدة، والآخرون يحاورونه بأسلوب أكثر تعقيدا، وباختصار لم أفهم شيئا، لكننا وفى ختام الجلسة وقفنا لننشد معا:

يا جموع الشعب هيا
حطمى كل القيود
وأشعلوا النار سويا
وابدأوا زحف الخلود
يا جنود الخير والحرية».

ويبتسم سيد رفاعى قائلا: «وكانت هذه هى الكلمات الوحيدة التى فهمتها. وبعد فترة اتصل بى محمد عزب قابيل لأحضر اجتماعا آخر، وعقد الاجتماع فى منزل زميلنا فى سلاح الطيران سيد حافظ، وحضر الزعيم أنور كامل يلقى محاضرة عن المادية الجدلية وحاولت جهدى أن أفهم حرفا واحدا حتى لا يتهمنى الجالسون بالجهل لكننى وبصراحة لم أفهم شيئا، وأصبت بإحباط شديد، لكن المهم فى الأمر هو أن الزعيم اختفى ولم تعد هناك اجتماعات وسألت عزب فقال إنه لا يعرف أين ذهب أنور كامل، وألمح إلى احتمال أن يكون قد خاف من مواصلة العمل السرى.. وطويت أحلامى، وبقيت فى السويس لأعاود التفكير أنا وحسن جوهر فى مشروعنا لاغتيال قادة الجيش والطيران»، لكن محمد عزب قابيل أتاه بعد فترة باقتراح آخر.

«تعلمت أن العمل الجماهيرى هو وحده الذى يستطيع أن يحول الغضب والاختلاف مع الرفاق إلى عمل إيجابى»
سيد سليمان رفاعى
(فى حوار معه)

.. «فى بداية ١٩٤٣ عاد محمد عزب قابيل للاتصال بى. وفتح معى نقاشا صويلا مؤكدا أن العدو ليس هذا القائد العسكرى أو ذاك، والظلم ليس هذا القرار أو ذاك، وإن مشكلتنا فى أننا لم نصبح ضباطا طيارين هى جزء من مشكلة أكبر. مشكلة الظلم الاجتماعى ككل. وفى حى السيدة زينب قادنى محمد عزب إلى الفجر الحقيقى. كان المسئول الجديد متواضعا وليس زعيما. وكلامه مفهوم وقادر على أن يتسلل إلى قلبك وعقلك معا. وعرفت فيما بعد أن اسمه موسى الكاظم. وبعد عدة جلسات تثقيفية أمسك هو بالخيط الصحيح وطلب أن نشكل خلايا حزبية فى سلاح الطيران، ونشطنا نشاطا محموما. وخلال عام واحد أصبح عددنا ٨٠ عضوا منظمين فى خلايا فى كل الأسراب وكل الورش وامتد نشاطنا إلى العاملين المدنيين فى السلاح ثم إلى الأسلحة الأخرى فكانت لنا خلايا فى الكتاب العسكريين وإدارة التجنيد وإدارة الأسلحة الصغيرة وسلاح الإشارة وسلاح الصيانة وموسيقات الجيش».. وهكذا، وفى عام واحد أصبح سيد سليمان رفاعى (الرفيق بدر) زعيما حقيقياً.

وهكذا تأهل ليحضر مدرسة الكادر الأولى فى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م) الطلاب كثيرون منهم: إبراهيم العطار (طيار) سيد حافظ وسيد رفاعى (من ميكانيكيى الطيران) مختار العطار (رسام تشكيلى) كمال شعبان (مهندس معمارى) عبده دهب (نوبى) الشيخ عبد الرحمن الثقفى (أزهرى) وآخرون. أما المدرسون فهم: زكى هاشم (وكيل نيابة) أحمد دمرداش تونى (رئيس اللجنة الأوليمبية فيما بعد) أحمد نصر (مدرس لغة فرنسية فى كلية البوليس) تحسين المصرى وهنرى كورييل.

وبعدها مباشرة أصبح الرفيق بدر عضوا فى اللجنة المركزية ويخوض هو ورفاقه فى سلاح الطيران معارك أسطورية وإضرابات واعتصامات انتهت باعتقال القيادات البارزة فى السجن الحربى ثم فى قاعدة عسكرية فى سيوة وأخيرا قررت قيادة الجيش التخلص

من كثيرين منهم بالفصل من الخدمة العسكرية ويكون بدر وفؤاد حبشى (فاروق) ويوسف مصطفى (صدقى) من بين المفصولين.. ومن الجيش إلى الاحتراف الحزبى ذهب الثلاثة ليصبحوا جميعا عبر فترات متفاوتة أعضاء فى القيادة.

ومن سيوة، وبعد قرار الفصل يرحل إلى معتقل هايكستب، فقد أصبح مدنياً ويبقى حتى عام ١٩٥٠ ليفرج عنه ليجد «حدتو» مفككة. مزقها الانقساميون وأمعنوا فى التشهير بها وبقادتها. ومزقتها ضربات بوليسية شديدة القسوة. وما إن يخرج المعتقلون حتى يتم ترحيل هنرى كورييل إلى الخارج بحجة أنه ليس مصريا وينتخب الرفيق بدر سكرتيرا عاما لـ«حدتو».. وفى حوار آخر يتحدث الرفيق بدر: «كانت المسئولية صعبة جدا، وكان علينا أن نعيد بناء حدتو، وطبعا لم نكن نبدأ من فراغ، كان هناك كثيرون متناثرون، لكن عدد الكادر كان محدوداً، وأود أن أؤكد أن هؤلاء الانقساميين والبرجوازيين الصغار الذين ملأوا الساحة ضجيجا بجمل ثورية رنانة وتحدثوا عن ضرورة أن تكون العضوية ١٠٠٪ عمال وألصقوا تهمة البوليسية بكل من عداهم، كل هؤلاء وغيرهم هربوا من ساحة المعركة. وكانت مهمتنا هى إعادة الثقة إلى الكادر. والعمل الجماهيرى وحده هو الكفيل بذلك فأصدرنا مجلة البشير وأسسنا حركة السلام، وأصدرنا مجلة الكاتب ودفعنا كل الأعضاء إلى الشارع ليجمعوا توقيعات على نداء استكهولم للسلام ومنع استخدام الأسلحة النووية. وفى عدة أشهر وجدت فروع حركة السلام فى مدن عديدة وجمعنا حوالى ٥٠٠٠٠ توقيع وعادت الكوادر المخلصة لتلتف حولنا واتسع التنظيم بصورة مذهلة وتوسع نشاطنا فى الحركة النقابية وكنا على وشك عقد المؤتمر العمالى الأول لتأسيس اتحاد عام للعمال وعلى وشك عقد مؤتمر شعوب الشرق الأوسط وشاركنا بكتيبة من الأعضاء فى الكفاح المسلح فى قناة السويس، ودعونا إلى تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية التى عقدت مؤتمرا جماهيريا واسعا فى ميدان الأوبرا وأصبحت حدتو ملء السمع والبصر». ثم كان حريق القاهرة وبعده ثورة يوليو. وأسأله: كيف قابلت عبدالناصر وما انطباعك عنه؟: «كان ذلك فى عام ١٩٥١ حيث أبلغنى خالد محيى الدين بأن مسئول تنظيم الضباط الأحرار – وكان لنا فى هذا التنظيم عديد من الضباط أعضاء فى حدتو – يريد أن يقابلنى، وتم اللقاء بحضور خالد. وكان عبدالناصر يتفحصنى بإمعان ويفتح للحوار مجالات عديدة وكأنه كان يختبر مدى معرفتى بالأوضاع السياسية والاقتصادية، بل تطرق إلى الحديث فى الفلسفة».

وباختصار كان الحوار عميقا وممتعا ولم أتمالك نفسى وسألته: هل عرفت كيف علق

عبدالناصر على المقابلة، فأجاب: لا. وحكيت له ما رواه لى الأستاذ خالد محيى الدين، فعبدالناصر خرج منبهراً من المقابلة، وفيما هما يغادران مكان اللقاء سأله عبدالناصر: بيشتغل إيه الأستاذ بدر؟ وطلب منه خالد أن يخمن، فقال عبدالناصر «أستاذ جامعة» وهز خالد رأسه نفياً، قاضى؟ وطبعا لا.. وأخيرا قال خالد: ميكانيكى طيران. وانتفض عبدالناصر «إنت ازاى تقبل على نفسك أن يبقى رئيسك ميكانيكى؟!»، وظل فى كل حوار خلافى فى مجلس قيادة الثورة يذكر الأعضاء بأن خالد رئيسه ميكانيكى.

المهم مضى «بدر» ليصبح هو أيضا ملء السمع والبصر، وفى ٢٣ يوليو أتى عبدالناصر حاكما. وعندما شن بوليس عبدالناصر حملة على كوادر «حدتو». رغم تأييدهم لحركة الجيش ومشاركتهم فيها مشاركة فاعلة، وركز بالذات على مجموعة الجهاز الفنى التى كانت تطبع للضباط الأحرار منشوراتهم (ملكون ملكونيان ـ يحيى المازنى ـ كمال الشلودى ـ جمعة حسن جمعة) ثم جاء إعدام خميس والبقرى، اندفع الرفيق بدر إلى طلب المواجهة الحاسمة مع هذا الانقلاب العسكرى. الجميع وافقوا لكنهم اختلفوا حول مدى المواجهة، البعض يريد أن يبقى على شعرة معاوية، وبدر ومسلم (سيد خليل ترك) ومعهما مسئول رابطة الطلبة الشيوعيين الرفيق على (فتح الله ناجح أرمانيوس) وعشرات من الأعضاء صمموا على رفع شعار إسقاط النظام العسكرى. وعندما أعلنت هيئة التحرير اقترح الرفيق خليل مسئول الدعاية فى السكرتارية المركزية (كمال عبدالحليم) الانضمام إليها لتحويلها إلى جبهة. ورفض بدر ورفاقه وتمادى الخلاف وانقسم السكرتير العام فى نادرة لم تحدث. وأسس تنظيما صغيرا أسماه «حدتو ـ التيار الثورى» لكن عبدالناصر لم ينس هذا الميكانيكى الذى حرض الجميع ضده وقبض عليه ليحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة.

ويبقى الرفيق بدر حزينا ما تبقى له من أيام، متألما ليس من السرطان الذى كان يفتك به وإنما لأنه جرى استدراجه إلى الانقسام.

وعندما يتأسس التجمع كان يزورنا ربما ليطمئن على سير الأمور فى قلعة اليسار وقبل أن يرحل بأسبوعين استدعانى ليكمل حواراتى معه. أكملها ثم رحل.